التفسير الوسيط للقرآن الكريم

تفسير

سورة المائدة

دكتور
محمد سيد طنطاوي
مفتي جمهورية مصر العربية

الجزء السادس

الطبعة الثانية

١٤٠٧ هـ – ١٩٨٦ م

مطبعة السعادة
ميدان أحمد ماهر - شارع الجداوى رقم ١٢
تليفون ٩٠٧٣٧٩
س. ت ١١٩٩٧٠

تلاعبهم بأحكامه - تعالى - ، ومحاولتهم فتنة الرسول - صلى الله عليه وسلم - عند تقاضيهم أمامه ، وحذر - سبحانه - رسوله من مكرهم وساق له ما يسليه ويشرح صدره ، فقال - تعالى - :

« يأيها الرسولُ لا يَحزُنكَ الذين يسارعونَ فى الكُفرِ من الذينَ قالُوا آمنّا بأفواهِهم ولم تؤمِنْ قلوبُهُم . ومِنَ الذين هادُوا سمّاعونَ للكذب ، سمّاعُون لقومٍ آخرينَ لم يأتوكَ ، يحرّفُونَ الكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مواضِعِه، يقولُونَ إنْ أُوتيتم هذا فَخُذُوهُ ، وإنْ لم تُؤتَوْهُ فاحذرُوا، ومَن يُرِدِ اللهُ فتنتَه فلَنْ تَملِكَ لهُ من اللهِ شيئًا، أُولئكَ الذينَ لم يُرِدِ اللهُ أنْ يُطهِّرَ قلوبَهُم ، لهُم فى الدنيا خزىٌ ولهُم فى الآخرةِ عذابٌ عَظيمٌ (٤١) سَمّاعُونَ للكَذِبِ أكّالُونَ للسُّحتِ فإنْ جاءوكَ فاحكم بينَهُم أو أعرِضْ عنهم ، وإنْ تُعرِضْ عنهُم فلَنْ يضروكَ شيئًا، وإنْ حكمتَ فاحكُمْ بينَهُم بالقسط إن الله يحب المُقسِطين (٤٢) وكيفَ يُحكِّمونكَ وعندَهم التوراةُ فيها حُكْمُ اللهِ ، ثم يتولَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذلكَ وما أُولئكَ بالمؤمنينَ (٤٣) » .

وردت أحاديث متعددة فى سبب نزول هذه الآيات الكريمة ، ومن ذلك : ما أخرجه البخارى عن ابن عمر - رضى الله عنهما - أن اليهود جاءوا إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فذكروا له أن رجلا منهم وامرأة قد زنيا . فقال النبى - صلى الله عليه وسلم - : ما تجدون فى التوراة فى شأن الرجم ؟ فقالوا : نفضحهم ويجلدون . فقال عبد الله بن سلام : كذبتم . إن فيها الرجم فأتوا بالتوراة فنشروها .

قال ابن عباس : أنزلها الله فى الطائفتين من اليهود . وكانت إحداهما قد قهرت الأخرى فى الجاهلية، حتى ارتضوا واصطلحوا على أن كل قتيل قتلته العزيزة من الذليلة فديته خمسون وسقا . وكل قتيل قتلته الذليلة من العزيزة فديته مائة وسق . فكانوا على ذلك حتى قدم النبي - صلى الله عليه وسلم - . فقتلت الذليلة من العزيزة قتيلا ، فأرسلت العزيزة إلى الذليلة أن ابعثوا لنا بمائة وسق. فقالت الذليلة : وهل كان فى حيين دينهما واحد، ونسبهما واحد، وبلدهما واحد ، دية بعضهم نصف دية بعض ؟ إنما أعطيناكم هذا خوفا منكم، فأما إذ قدم محمد - صلى الله عليه وسلم - فلا نعطيكم . فكادت الحرب تهيج بينهما . ثم ارتضوا على أن يجعلوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حكما بينهم . ثم ذكرت العزيزة فقالت : والله ما محمد بمعطيكم منهم ضعف مايعطيهم منكم . ولقد صدقوا . ما أعطونا هذا إلا خوفا منا . فدسوا إلى محمد من يخبر لكم رأيه . إن أعطاكم ما تريدون حكمتموه ، وإن لم يعطكم لا تحكموه . فدسوا إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ناسا من المنافقين ليخبروا لهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فلما جاءوه أخبر الله رسوله بأمرهم كله وما أرادو . فأنزل الله - تعالى - : « يأيها الرسول لا يحزنك . . . » إلى قوله: « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون »(١)

قال ابن كثير - بعد أن ساق هذه الأحاديث وغيرها - فهذه الأحاديث دالة على أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حكم بما يوافق حكم التوراة . وليس هذا من باب الإكرام لهم بما يعتقدون صحته ، لأنهم مأمورون باتباع الشرع المحمدى لا محالة ، ولكن هذا بوحى خاص من الله - تعالى - إليه بذلك وسؤالهم إياه عن ذلك ليقررهم على ما بأيديهم مما تواطئوا على كتمانه وجحوده وعدم العمل به تلك الدهور الطويلة . فلما اعترفوا به مع علمهم على خلافه ، ظهر زيغهم وعنادهم وتكذيبهم لما يعتقدون صحته من الكتاب الذى بأيديهم،

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٦٠ .

حكم الله واضحاً فيما تحاكموا إليك فيه ، ثم هم يعرضون من بعد تحكيمك ء حكمك الموافق لما قضى الله به فى كتابهم التوراة .

وقوله : « وما أولئك بالمؤمنين » تذييل مقرر لمضمون ما قبله .

ونفى الإيمان عنهم مع حذف متعلقه لقصد التعميم .

أى : وما أولئك الذين جاءوا يتحاكمون إليك من اليهود بالمؤمن لا بكتابهم التوراة . لأنهم لو كانوا مؤمنين به لنفذوا أحكامه ، ولا بك يا ع لأنهم لو كانوا مؤمنين بك لا استجابوا لك فيما تأمرهم به وتنهاهم عنه .

قال الفخر الرازى : قوله - تعالى - : « وكيف يحكمونك ... الخ هذا تعجيب من الله لنبيه - عليه الصلاة والسلام - بتحكيم اليهود إياه ب عليهم بما فى التوراة من حد الزانى ، ثم تركهم قبول ذلك الحكم ، فعدلوا ا يعتقدونه حكما حقا إلى مايعتقدونه باطلا طلبا للرخصة . فلا جرم ظهر جهل وعنادهم فى هذه الواقعة من وجوه : أحدها : عدولهم عن حكم كتابهم . والثانى رجوعهم إلى حكم من كانوا يعتقدون فيه أنه مبطل . والثالث : إعراضهم حكمه بعد أن حكموه . فبين الله حال جهلهم وعنادهم لئلا يغتر بهم مغتر أ أهل كتاب الله ، ومن المحافظين على أمر الله »(١) .

وبعد أن وصف الله - تعالى - اليهود وأشباههم بجملة من الصفا القبيحة ، كمسارعتهم فى الكفر . وكثرة سماعهم للكذب ، وتحريفهم للك عن مواضعه ، وتهافتهم على أكل السحت . وبعد أن خير رسوله - صلى ا عليه وسلم - فى أن يحكم بينهم أو أن يعرض عنهم إذا ما تحاكموا إليه ، و أن عجب كل عاقل من أحوالهم ... بعد كل ذلك ، شرع - سبحانه - فى بي منزلة التوراة وفى بيان بعض ما اشتملت عليه من أحكام فقال - تعالى - :

«إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُ

---

(١) تفسير الفخر الرازى ج ١١ ص ٢٣٦ .

للذينَ هادُوا والربّانيونَ والأحبارُ بمـا استُحْفِظُوا من كتابِ اللهِ وكانوا عليه شهداء، فلا تخشَوْا النّاسَ واخشَونِ، ولا تَشتَرُوا بآياتِي ثمنًا قليلاً، ومن لم يحكمُ بما أنزلَ اللهُ فأولئكَ هم الكافرونَ (٤٤) وكَتبْنَا عليهم فيها أنَّ النفْسَ بالنَّفْسِ، والعينَ بالعينِ، والأنفَ بالأنفِ، والأذُنَ بالأذُنِ، والسنَّ بالسنِّ، والجروحَ قصاصٌ. فمن تصدَّق به فهو كفارةٌ له، ومَن لم يحكُمْ بما أنزلَ اللهُ فأولئكَ هم الظالمونَ(٤٥) ».

فقوله ـ تعالى ـ : « إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور ... » بيان لشرف التوراة قبل أن تمتد اليها الأيدى الأثيمة بالتحريف والتبديل .

ويدل على شرفها وعلو مقامها أن الله ـ تعالى ـ هو الذى أنزلها لا غيره، وأنه ـ سبحانه ـ جعلها مشتملة على الهدى والنور .

والمراد بالهدى : ما اشتملت عليه من بيان للأحكام والتكاليف والشرائع التى تهدى الناس إلى طريق السعادة .

والمراد بالنور : ما إشتملت عليه من بيان للعقائد السليمة ، والمواعظ الحكيمة ، والأخلاق القويمة .

والمعنى إنا أنزلنا التوراة على نبينا موسى – عليه السلام – مشتملة على ما يهدى الناس إلى الحق من أحكام وتكاليف وعلى ما يضىء لهم حياتهم من عقائد ومواعظ وأخلاق فاضلة .

ثم بين – سبحانه – بعض الوظائف التى جعلهـا للتوراة فقال : « يحكم بهـا النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما إستحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء ... » .

والمراد بقوله : « النبيون » من بعثهم الله فى بنى إسرائيل من بعد موسى لإقامة التوراة .

والمعنى: إنا أنزلنا التوراة فيها هداية للناس إلى الحق ، وضياء لهم من ظلمات الباطل ، وهذه التوراة يحكم بها بين اليهود أنبياؤهم الذين أسلموا وجوههم لله ، وأخلصوا له العبادة والطاعة ، ويحكم بها أيضاً بينهم الربانيون والأحبار الذين هم خلفاء الأنبياء . وكان هذا الحكم منهم بالتوراة بين اليهود ، بسبب أنه — تعالى — حملهم أمانة حفظ كتابه ، وتنفيذ أحكامه وشرائعه وتعاليمه .

ويصح أن يكون قوله « بما استحفظوا » متعلقا بالربانيين والأحبار ، وأن يكون الضمير عائداعليهم وحدهم . أى : على الربانيين والأحبار . ويكون الاستحفاظ بمعنى أن الأنبياء قد طلبوا منهم حفظ وتطبيق أحكامه .

والمعنى : كذلك الربانيون والأحبار كانوا يحكمون بالتوراة بين اليهود، بسبب أمر أنبيائهم إياهم بأن يحفظوا كتاب الله من التغيير والتبديل .

وقوله : « وكانوا عليه شهداء » معطوف على « استحفظوا » .

أى : وكان الأنبياء والربانيون والأحبار شهداء على الكتاب الذى أنزله الله — وهو التوراة — بأنه حق ، وكانوا رقباء على تنفيذ حدوده ، وتطبيق أحكامه حتى لا يهمل شيء منها .

قال الفخر الرازى . قوله : « بما استحفظوا من كتاب الله » : حفظ كتاب الله على وجهين :

الأول : أن يحفظ فلا ينسى . الثانى : أن يحفظ فلا يضيع .

وقد أخذ الله على العلماء حفظ كتابه من هذين الوجهين . أحدهما : أن يحفظوه فى صدورهم ويدرسوه بألسنتهم .

والثانى : ألا يضيعوا أحكامه ولا يهملوا شرائعه .

وقوله : « وكانوا عليه شهداء » أى : هؤلاء النبيون والربانيون والأحبار كانوا شهداء على أن كل ما فى التوراة حق وصدق ومن عند الله . فلا جرم كانوا يمضون أحكام التوراة ويحفظونها من التحريف والتغيير »[1] .

---

(١) تفسير الفخر الرازى ج ١٢ ص ٤